

درس 11 □ التتار وتدمير مكتبة بغداد □ سلسلة التتار للشيخ

راغب السرجاني

راغب السرجاني

اعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم. ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا. انه من يهده الله فلا مضل له. ومن يضل فلا هادي له. واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له

واشهد ان محمدا عبده ورسوله. اما بعد فاهلًا ومرحبًا بكم. في هذا اللقاء الطيب المبارك. واسأل الله عز وجل ان يجعل هذا اللقاء في ميزان حسناتنا اجمعين مع الحلقة الحادية عشرة من قصة التتار

في الحلقة السابقة تحدثنا عن اجتياح بغداد درة العالم الاسلامي وعاصمة الخلافة الاسلامية لاكثر من خمس قرون متتالية ذكرنا حصار هولوكو وبيجو وكتبو غنوبين للمدينة ثم دخول المدينة فاربعة صفر سنة ستمية ستة وخمسين من الهجرة وقد قيدوا خليفة وساقوه امامهم وهو يرسف في اغلاله ثم فعلوا في المدينة كل ما يمكن ان يفعل كما امر هولوكو جنوده استبيحت المدينة استبيحت بغداد العظيمة لم يرفع فيها سيف للدفاع عن النفس او عن الحرمات استبيحت مدينة ابي حنيفة رحمه الله ومدينة الشافعي ومدينة احمد بن حنبل رحمهم الله جميعا. استبيحت مدينة المعتصم مدينة هارون الرشيد. المدينة التي كان يقصدها طلاب العلم من كل مكان

المدينة التي كانت ثغرا عظيما من ثغور المسلمين استبيحت تماما فعل التتار فيها الافاعيل يا اخواني ويا اخواتي دخل التتار على المدينة اعمال القتل في رجالها وفي نساءها وفي اطفالها والقوم جميعا يفرون كالفئران المذعورة منهم من يدخل بيته ويغلق على نفسه على نفسه الباب فيأتي التتاري فيقتلع الباب او يحرقه ثم يذهب بعد ذلك يتتبع المسلمين في داخل بيوتهم

منهم من يهرب الى اسطح المنازل فيأتي وراءه التتاري فيقتله فوق سطح المنزل حتى اصبحت ميازيب المدينة او من فوق اسطح المنازل تلقي بالدماء في وسط شوارع المدينة استمرت عملية القتل هذه اياما متصلة مش يوم ولا اثنين ولا ثلاثة اربعين يوم ورا بعض الخليفة المستعصم بالله احتفظوا به حيا عشر تيام كاملة من يوم اربعة صفر ليوم اربعتاشر سفر وهو يرى كل ذلك بعينه

يرى تدمير القصور الجميلة. يرى حرق المساجد والمدارس يرى قتل اولاده امام عينيه يرى اسر اخواته يرى تدمير جيشه يرى قتل شعبه يرى نهب ثرواته يرى كل شيء لا شك يا اخواني انه في هذا الموقف كان يقول يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ما اغنى عني ماليا. هلك عني سلطانية. لا شك انه كان يقول رب ارجعون. لعلي اعمل صالحا فيما تركت يا ريتني جهزت الامة لمثل هذا اليوم

يا ريتني ربيت الناس على حب الجهاد في سبيل الله يا ريتني حافظت على الشرع الاسلامي يا ريتني جماعة الزكاة يا ريتني ما فرضتض ضرايب يا ريتني قويت من دولتي يا ريتني ساعدت المسلمين الذين ذبحوا هنا وهناك يا ريت يا ريتني حاجات كثيرة لكن الوقت عمره ما بيرجع ونادي ولات حين مناص ما فيش فايده بعد عشر ايام كاملة من رؤية هذا العذاب وهذا اشد كثيرا من القتل والله يا اخواني

بعد هذه الايام العشرة قرر التتار ان يقتلوه وضعوا التتار في احد الاكياس وامروا الجنود بركله بالاقدام. الرفس بالاقدام حتى الموت تخيل واخذ الجنود يرفسونه ويدوسون عليه حتى خرجت روحه في هذا الوضع المهين. هذا خليفة المسلمين هذا اخر خليفة يعيش في بغداد. كان رقم سبعة وتلاتين من خلفاء العباسيين. قتل الخليفة المستعصم بعد ان رأى العذاب بعينه ديوانا وراء الشعب المهانة التي قتل بها الخليفة واستمر القتل بعد قتله في مدينة بغداد. اربعين يوم متصلة

تخيلوا كم من المسلمين قتل في مدينة بغداد قتل الف الف مليون مسلم قتلوا ذبحا بالسيوف مش قبله اترمت موتت عدد كبير من الناس مرة واحدة لآ كل يوم بالسيف بالسيف يعني ما فيش حاجة بتتعمل في خلال اربعين يوم الا قتل المسلمين واصبحت هناك تلال ضخمة جدا من الجثث المتعفنة في شوارع بغداد وفي بيوتها وفي كل مكان سبحان الله اربعين يوم يا اخواني والله وما تحرك جيش مسلم لا من العراق ولا من غيرها لنجدة هؤلاء الذين يسحقون تحت اقدام التتار ولم يكتفي التتار بذلك بل فعلوا فعلا شنيعا ينبيء عن نفسية التتار وعن الفجوة الحضارية الهائلة التي كانت بين امة الاسلام بين هذه

الامة الهمجية امة التتار ذهبوا الى مكتبة بغداد

مكتبة بغداد مكتبة تحوي عددا لا يتخيل من الكتب ملايين الكتب يا اخواني ويا اخواتي ملايين الكتب في ذلك الوقت الذي ليس فيه طباعة كان فيها غرف منفصلا لكل علم من علوم الحياة ومن علوم الشرع. غرف للتفسير تفسير القرآن وغرف للحديث وغرف للفقه وغرف للعقيدة وغرف للاخلاق وغرف للطب والهندسة والفلك والكيمياء والفيزياء. كل علوم الدنيا كل علوم الحياة عصارة فكر المسلمين في اكثر من ست قرون كانت مجمعة في داخل هذه المكتبة اعظم مكتبة على مستوى العالم كانت هذه المكتبة لا تضم فقط عصارة فكر المسلمين بل عصارة فكر الانسانية فيها من الكتب اليونانية والرومانية والفارسية والهندية والمصرية المترجمة للعربية للكتب في كل علوم الحياة. تخيل كل هذا الكم من العلم الرهيب اخذه التتار والقوا به في بساطة لا تخلو من غباء القوا بها جميعا في نهر دجلة حتى يقول الرواة انه قد تحول لونه الى اللون الاسود من مداد الحبر الوقت والجهد والعمر والمال الذي انفق في هذه الكتب لا يقدر بثمن. لكن التتار لا يقدرون العلم. اخذوا هذا العلم بكامله والقوا به في نهر دجلة انها ملاحظة لابد ان يقف امامها المسلمون وقفة طويلة كل الامم التي اجتاحت المسلمين سواء في القديم او في الحديث تهدف دوما الى ضرب المسلمين في علومهم

الى ضرب المسلمين في حضارتهم الى ضرب المسلمين في نهضتهم. هكذا فعلوا وهكذا يفعلون اول ما دخل الصليبيون الى طرابلس طرابلس الشرق في لبنان عندما احتلت طرابلس في اواخر القرن الخامس الهجري قبل هذه الاحداث بحوالي مية ستين سنة. ماذا فعل الصليبيون؟ حرقوا من مدينة طرابلس اكثر من ثلاثة مليون كتاب في ايام معدودات متخيل الرقم وثلاثة مليون ده هذا رقم لا يقارن بمكتبة بغداد. المكتبة رقم واحد على العالم

لما عندما اسقط الصليبيون مدينة قرطبة سنة ستمية ستة وثلاثين من الهجرة احرقوا كما هائلا من الكتب فيها كذلك فعلوا في اشبيلية سنة ستمية ستة واربعين من الهجرة. كذلك فعلوا في طليطلة وفعلوا في غرناطة وفي غيرها وفي غيرها كذلك عندما دخل الاستعمار الاوروبي الحديث في بلاد المسلمين ماذا فعل كان هذا الاستعمار اذكى من الاستعمار السابق لم يحرق الكتب ولم يغرقتها في الانهار انما اخذ هذه الكتب وسرقها الى بلاده

سرقها وترجمها وعاش على علومها وبنى حضارته على اكتاف المسلمين واتهم المسلمين بالتخلف والرجعية هذا ما حدث اذا نظرت الى المخطوطات الاصلية للكتب العلمية الاسلامية. تجد ان غالبها معظمها في بلاد اوروبا وليس في بلاد المسلمين في مكتبات مختلفة كثيرة وليست في مكتبات المسلمين لماذا يا اخواني؟ لماذا هذه السرقات لهذه العلوم؟ لماذا هذا التدمير؟ لانهم يعلمون ان هذا هو الاساس التي بنيت عليه هذه الحضارة

ويعلمون انه ان ضعف المسلمون في وقت من الاوقات وحفظت علومهم فانهم يقوون وهم يعلمون انه اذا ضعف المسلمون في وقت من الاوقات وظلت معهم هذه العلوم فانهم سيستعيدون قوتهم لا محالة لذلك يحرمونهم من هذه القوة بكل طريقة ممكنة والان عن طريق تغيير مناهج التعليم من الممكن ان تتعلم كما تريد ولكن بالطريقة التي يريدها الغرب منك بالطريقة التي يريدها اعدائك منك حتى لا يصل اليك من العلم الا ما يكفي فقط للحياة وليس للسيادة ولا للريادة ولا للتفوق ولا

للتمكن فعل ذلك التتار بمكتبة بغداد القوها بكاملها في نهر دجلة حتى يقول الرواة ان الرجل من التتار كان يعبر من ناحية الى الناحية على جسر من الكتب. تخيل كتب تملأ نهر دجلة حتى تكون جسرا تعبر عليه جيوش التتار من مكانه احنا قلنا من القتل كثرت الجسس بشكل بشع في داخل بغداد حتى اصدر هولاء الامرا بالامان الحقيقي ولماذا يصدر امرا بالامان الحقيقي في البلدة؟ حتى يخرج الناس المختبئون ليدفنوا هذه الجثث

والا انتشرت الاوبئة في كل مكان ليس في العراق فقط ولكن فيما حولها ولن يفرق الوباء عندئذ بين مسلم وبين تنريه بالفعل اعطى الامان الحقيقي لاهل البلدة وخرج المسلمون من الاقبيبا من المقابر ومن الابيار. وبدأ كل رجل وكل امرأة يبحث عن اخيه يبحث عن ابنه يبحث عن امه او ابيه. يبحث عن اقاربه واصحابي واحبابي ليدفنهم مأساة يا اخواني والله بكل المقاييس

مليون جثة في شوارع بغداد قام المسلمون بدفنها بعد اربعين يوم من القتل ومع كل هذا انتشر الطاعون في بغداد وما حولها. وكما يقول ابن ابن كثير رحمه الله فمن لم ينجو من فم نجا من الطعن لم ينج من الطاعون الذي نجا من طعن التتار لم ينج من الطاعون الوباء الذي انتشر في البلاد نتيجة وجود هذه هذا العدد الضخم من الجثث

بعد هذه الاربعين آآ يوم المؤسفة بتاريخ الامة الاسلامية اقام التتار مجلسا جديدا للحكم في العراق ووضعوا على قمته مؤيدي الدين العلقمي. ومعه مكيفة نصراني وغيرهم ممن كان يعاون التتار. وسبحان الله هقول لكم على حاجة غريبة جدا جدا بقصة ابن العلقمي مؤيد الدين ابن العلقمي اول ما خد الحكم واول ما سقطت بغداد واول ما انتهى دوره نعم حظوه كصورة للقائد او للزعيم على هذه الدولة الممزقة المهلهلة المحطمة

اما المدمرة لكن عاملوه بمنتهى الاستهزاء وبمنتهى السخرية حتى كان يركب بغلته او دابته ويأتي الجندي التتري يدفعه من ظهره هكذا. في منتهى الالهانة وفي منتهى الذل جندي تتري لعل هولاء نفسه لا يعرف اسمه فهكذا كانوا يفعلون به. خلاص الدور بتاعه انتهى. مرت به امرأة مسلمة ورأته في هذه الحالة وجندي يدفعه في ظهره وهو في الظاهر الرئيس لهذه البلاد المحطمة قالت له هكذا كان اولاد بني العباس يعاملونك انت كنت رئيس الوزرا وكنت معظم ومكرم. اهكذا كنت تعامل فاخذ هذه الكلمة وذهب الى بيته وركبه حزن شديد وهم طويل. كان يظن هكذا ضحك عليه التتار وضحكت عليه الشياطين. انه سيصبح ملكا ورئيسا ايمن لكن على اين زعيم على اي البلاد زعيم على الموتى وعلى المرضى وعلى القتلى وعلى المشوهين وعلى هذه البلد التي ليس فيها حياة ركبهم الهم والغم يا اخواني ويا اخواتي انا يا ربي بعد شهر او شهرين من هذه المأساة مات ابن العلقمي مات في بيته لم يستمتع بحكم ولم يستمتع برئاسة ولم يستمتع بصحبة لأكبر قواد العالم في زمانه هولاء لم يستمتع بذلك ووضع التتار ابن ابن العلقمي ابن مؤيد الدين العلقمي. على حكم بغداد. لانه ورت الخيانة من ابيه وسبحان الله عدة شهور وقبل ان تنتهي سنة ستمية ستة وخمسين من الهجرة ومات الابن كذلك انها والله ايات لابد ان يقف امامها المسلمون حرصوا كل الحرص على الدنيا فما حصلوا منها الا ما اراده الله عز وجل لهم وباءوا بالخسران المبين اضاعوا البلاد واضاعوا العباد واضاعوا الدين ووضعوا كل ما رأيتموه من مكائد لتسقط هذه الخلافة هذا السقوط المروع وصلت الانباء الى مشارق الارض ومغاربها ذهل المسلمون في كل مكان ناس كانت بتعتبر الخلافة العباسية وان كانت ضعيفة رمزا لابد ان يبقى الضعيف من الممكن ان يقوى. اما الذي مات فكيف الا يوم الا يوم القيامة فهذا كان امر اذهل المسلمين فعلا وافقدتهم صوابهم حتى يقول المؤرخون في وصف هذه الفترة ودخلت سنة ستمية سبعة وخمسين من الهجرة والدنيا بلا خليفة. والدنيا بلا خلافة. امر غير متخيل. يعني ايه ما فيش خلافة؟ يعني ايه ما فيش حاجة ممكن تجمع المسلمين في يوم من الايام كانت صدمة في منتهى الروعة يا اخواني صدمة هزت المسلمين في اعماقهم صدمة قتلت كل روح عند الجبناء. ولن يبقى بعد هذه الصدمة الا صادق الايمان حقا لن يستمر في الطريق الا المخلص حقا وقليل ما هم انتشر في العالم الاسلامي في ذلك الوقت اعتقاد الناس اعتقدت ان المهدي سيظهر بعد لحظات. وان المسيح عليه السلام سينزل بعد لحظات. وان الدنيا ستنتهي بعد لحظات. خلاص هذا الشعور انتشر وسجل في الكتب. الناس كلها بقت بتقول خلاص هذه علامات الساعة هذه نهاية الكون. فلننتظر المهدي حتى يأتي فنقاتل معه ونهزم التتار وعدت سنة واثنين وثلاثة وعشرة ومية وسبعمئة ولم يظهر المهدي ولم ينزل المسيح عليه السلام نحن نوقن يا اخواني انه في يوم من الايام سينزل المسيح عليه السلام. ونوقن انه في يوم من الايام ستكون الساعة. لكن لماذا يلجأ الى هذا الامر في مثل هذه الظروف تعرفون لماذا؟ للاحباط الشديد الذي عند الشعوب. هم لا يتخيلون انهم يستطيعون بقوتهم وبسلاحهم وبعدهم ان يهزموا جيوش التتار. لا طاقة لهم بهلاك وجنوده فليظهر المهدي او فلينزل المسيح عندها سيحل هو المشكلة. سيأتي النصر من مكان بعيد. اما نحن فلا طاقة لنا انتظر الناس ويحبط الناس ويقعد الناس في انتظار ان يأتي التغيير من مكان بعيد زعماء الموصل وزعماء الشام اتوا من كل مكان يهنئون الخليفة او يهنئون الحاكم العظيم الذي فتح هذه البلاد هولاء. تخيل بدر الدين لؤلؤ والناصر يوسف الايوبي والاشرف الايوبي وهؤلاء الزعماء الاقزام اتوا من كل مكان يشدون على يد هذا الرجل الذي اصبح قائدا للعراق كما اصبح قائدا للعالم الاسلامي قبل ذلك الذي سقطت تحت اقدام التتار في سنوات مريرة مرت على الامة كما ذكرنا كيف وصل المسلمون لهذه الحال؟ هذا رأينا وسجل في الكتب يا اخواني ان كنا نستغرب ذلك من الزعماء. فاين كانت الشعوب اين الشعوب التي سمعت بذهاب زعمائها لموالاة هولاء الذي اسقط العراق واسقط قبل بلاد المسلمين؟ اين كانت شعوب يا اخواني ويا اخواتي كما ذكرنا مرارا قبل ذلك الحكام افراز طبيعي جدا للشعوب كما كانت تبحت الحكام عن حياة كانت الشعوب ايضا تبحت عن حياة اي حياة وان كانت ذليلة وان كانت مهينة وان كانت تعيسة لقمة العيش يعيشون جريا وسعيا وراء لقمة العيش. لا جنة ولا نار لا حساب يوم القيامة. لا نظر الى الدين لا نظر الى الشريعة لا نظر حتى الى الحرمات والى المقدسات كان هذا هو وضع الشعب ومن لم تقنعه الكلمات ولم ومن لم يغسل مخه بالاعلام المنتشر في ذلك الوقت كان يقنعه السيف هؤلاء

الحكام الذين كانوا يسارعون في هولاءكو ويطلبون وده ويشدون على يده هؤلاء كانوا اشد الحكام على شعوبهم كانوا اشد الطغاة على شعوبهم. كانوا اقوى الاقوياء على شعوبهم الشعوب التي قبلت بهذه المهانة وبهذا الذل لابد ان تذوق ما ذاقه بعد ذلك امراؤهم وحكامهم من الذل ومن المهانة
كما فعل بالمعتصم بالمستعصم بالله كما فعل بالمستعصم بالله فعل بجيشه وشعبه وكما يذل بدر الدين لؤلؤ والنصر يوسف وغيرهم
نفسهم. الان امام هولاءكو ستذل شعوبهم جميعا كما سنرى هذه الدروس لابد ان نفقها جميعا
ونسأل الله عز وجل ان يفقها في سننه وان يعلمنا ما ينفعنا وان ينفعا بما علمنا انه ولي ذلك والقادر عليه فستذكرون ما اقول لكم
وافوض امري الى الله. ان الله بصير بالعباد. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته